الاستاذ أسد غندور

حول المسألة القومية الديمقراطية في الوطن العربي

"إنّ الرؤية العلمية، المطابقة للواقع، في تحليل الحقائق الموضوعية الملموسة، هي وحدها التي تملي على قوى التغيير إتخاذ القرار السياسي، وتدفعها بالتالي نحو أسلوب صحيح وواقعي في العمل الثوري".

إنطلاقاً من هذا المفهوم، سأقوم بعرض لبعض قضايا القومية العربية الديمقراطية محاولاً التصدي للتساؤلات التالية:

<u>أولاً:</u> ما هو مفهوم القومية في بلدان العالم الثالث، وكيف تتحدد الحركة القومية العربية على ضوء هذا المفهوم؟

<u>ثانياً:</u> كيف إنتقلت أوروبا من دولة العشيرة إلى الدولة القومية، وماذا حصل بالمقارنة في الوطن العربي؟

<u>ثالثاً:</u> أين يتجلى غياب القومية الديمقراطية في الوطن العربي، وما هي أشكال الدولة العربية القائمة؟

<u>رابعاً:</u> ما هي الخطوط العامة للنظرة التقليدية الروسية حول قضية الأمة والقومية، وما هي المعطيات الإيديولوجية والسياسية لتلك النظرة...؟

<u>خامساً:</u> أين تتمثل السيرورة التاريخية للحركة القومية العربية الديمقراطية؟

<u>أولاً: حول مفهوم القومية:</u>

في العالم الثالث، الذي يعاني من إنقسامات مجتمعية عامودية، تهدد بالإنفجار مع كل لحظة تختل فيها موازين القوى القائمة، والذي يعاني من استلاب ثقافي وحضاري واقتصادي وسياسي رحيب، مما يجعله بالتالي، ألعوبة في أيدي القوى الخارجية الاستعمارية، في هذا العالم، حيث لا يمكن أن تكون القومية صنيعة طبقة معينة من المجتمع. تختصها وحدها، الشيء الذي يصدق على تاريخ وسير تطور الأمم الأوروبية، بل أن تكون: حركة ذات طابع جماهيري وشعبي عام، فتحتضنها جميع الطبقات والفئات الشعبية المناضلة في سبيل تحقيق الذات وبناء دولة الاستقلال. في هذا العالم تغدو القومية "منظومة علاقات مجتمعية متطورة ومميزة، نسجها تطور تاريخي معين بين أو داخل أعضاء جماعة واحدة".

بالتالي وخلافاً للتسميات الدارجة، ليست قومية (بل قوماوية فحسب) ما كان مجرد موقف تمايزي أو إنثنائي أو عدائي تتخذه جماعة ما إزاء أخرى. القومية هي "الحركة التاريخية التي ترفع سديماً بشرياً إلى كتلة متجانسة، متلاحمة، مندمجة، تستحق اسم أمة"، والقومية هنا لن تولد في السوق الوطنية البورجوازية، كما حصل في أوروبا، بل تولد في غمار الكفاح العام المشترك ضد الاستعمار من جهة، وعبر تصنيفها لسائر التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التقليدية، المفوَّتة، ما قبل القومية من جهة أخرى. إذاً، القومية في البلدان المتخلفة، وكما عبر عنها كاوتسكي، في كتابه "التحولات السياسية في البلدان المختلفة، لا تعني أكثر من النضال ضد الأرستقراطية المحافظة في الداخل (وهذا ما يدفعها لكسب تأييد كافة طبقات الأمة ما عدا المراتب الملوثة منها)، وضد السيطرة السياسية الاستعمارية الخارجية باعتبارها تعيق عملية التنمية الداخلية من جهة وتدعم الجهة المحافظة من جهة أخرى، ويضيف بأن هذه القومية – التي غالباً ما تكون بقيادة المثقفين – قد تتجاوز بعض الأحيان الفروقات والتمايزات العرقية واللغوية والثقافية لتعانق هذين الهدفين، وذلك بعكس التطور الغربي الذي جسّد القومية بدولة مركزية (الدولة الأمة) وثقافة موحدة.

على ضوء هذا الفهم للمسألة القومية في العالم الثالث، المتخلف بل المتأخر يصبح بالإمكان تحديد القومية العربية، أنها "حركة الشعب العربي التاريخية الهادفة إلى التحرر من النفوذ الإستعماري، وتخطي البنية الإجتماعية والثقافية والاقتصادية التقليدية والعمل، بالتالي، نحو بناء مجتمع مدني حر وعصري، وإنشاء دولة عربية ديمقراطية موحدة هي الدولة القومية العربية".

الدولة القومية هذه ستناضل، من الزاوية الاقتصادية، ضد "الاستثمار الإمبريالي، لكنها لا تزيله، فتكافح بجميع قواها"، بواسطة التأميمات، وجعل التجارة الخارجية قطاعاً عاماً تابعاً للدولة، وإلغاء الوسطاء، وبواسطة التصنيع ومكننة الزراعة وتسوية الأسعار العالمية لأجل وقف هذا النهب. لكن الحركة الحرة للعرض والطلب في السوق العالمية توقف دائماً كفاح هذه الدولة عن بلوغ أغراضه القصوى. إنها، اي الدولة القومية، دولة يذكّرها إقتصادها ما في كل لحظة بوضعها القاصر، وهذا التذكير، متى أصبحت قادرة على إدراكه، يدفعها بالضبط نحو طريق التقدم المستمر".

ومن الزاوية السياسية – الاجتماعية، تبدو الدولة القومية في هذا المجال، وكما عرّفها عبدالله العروي في كتابه "الإيديولوجية العربية المعاصرة" إنها "دولة آخذة بالتبرجز، مع جميع ما يستلزم ذلك من خصائص إجتماعية وثقافية، لكن تلك العملية تجري تحت قيادة فئة إجتماعية غير البورجوازية".

هذا التعريف ينزع بالنتيجة من تلك الدولة طابعها كظاهرة خاصة بالبلدان المتخلفة، اليوم! وقد سبق أن شوهدت في الماضي في آسيا، وحتى في أوروبا.

بيد أن التعريف السابق يبدو أنه الأكثر مطابقة، على المستوى الثقافي. إذ أن الدولة القومية تفرض ثقافة برجوازية، عقلانية النزعة، ونازعة إلى الكونية على مجتمع لم يلد هذه الثقافة بتطور داخلي.

2- سير تطور القومية في أوروبا والوطن العربي:

إستيقظ الوعي القومي في أوروبا في ظل صراح طبقي حاد، لقد نضج هذا الوعي في بعض البلدان، كفرنسا مثلاً، في حرب طبقية فعلية بين الأمة (وهي البورجوازية + جماهير الشعب). وبين سادة الأرض من النبلاء، لقد كان هو العامل الاقتصادي، وبتعبير أدق التطور الاقتصادي الرأسمالي، هو محرك القوميات الأوروبية، حيث يشكل العامل الأساسي في ظهور الدولة القومية الموحدة، فهو الذي أنضج الشعور الغامض الغض بالقومية، وهو الآن حوّلها من الإمكانية إلى الفعل، لأن عاملي اللغة والأرض كانا متوفرين في العهد الاقطاعي، الذي كان يقسم كل بلد إلى اقطاعات أو إمارات تكاد تكون مغلقة، تكفي نفسها بنفسها في مختلف نواحي الحياة، إلاّ أن هذه العزلة، التي فرضتها الحواجز الاقطاعية على أجزاء الأمة، جعلت الوعي القومي، وضرورة الوحدة هزيلاً إن لم يكن مفقوداً، وما إن هدم التطور الاقتصادي الحواجز والقيود الاقطاعية، إنصهرت الكيانات الصغيرة المبعثرة، وتبلور التكوين النفسي لكل الشعب، وأُنشأت تلك الأمم ثقافتها الخاصة المشتركة. إذاً، لقد كانت السوق هي المدرسة التي أتيح فيها للبورجوازية الأوروبية أن تتعلم القومية، وهنا، في هذا العرض، تصدق بشكل واضح مقولة ستالين عن الأمة بأنها: جماعة معينة من الناس، ليست عرقاً ولا عشيرة، بل جماعة قد تكونت تاريخياً على أساس جامعة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية، والتكوين النفسي الذي يجد تعبيراً له في الثقافة المشتركة. (ستالين – ما هي الأمة – من كتابه "الماركسية والمسألة القومية والكولونيالية ص11–20).

إلاّ أن القوميات الأوروبية قد اتسمت بطابعٍ شوفيني استعماري، إذ بدأت المرحلة الاستعمارية في التاريخ الحديث مع نشوء البورجوازية الأوروبية، ثم اتخذت هذه الأمم طابعاً استعمارياً على النطاق العالمي، عندما دفع التطور بالرأسمالية إلى مرحلتها الاحتكارية.

على أثر التوسع الاستعماري في العالم، وعلى أثر الحرب العالمية الأولى خاصة، انتقلت المسألة القومية من أوروبا إلى الصعيد العالمي، وأصبح النضال القومي في أساسه نضالاً تحررياً للجماهير الشعبية، وجماهير الفلاحين في آسيا وأفريقيا خاصة ضد الدول الاستعمارية.

وإذا كانت الأمة العربية قد تكونت خلال تاريخ طويل تعود بعض جذوره إلى ما قبل الإسلام، إلاّ أن القسم الأكبر والأكثر حسماً في هذا التكون التاريخي الطويل هو التكون التاريخي لحقبة ما بعد الإسلام. الحركة القومية العربية لم تستيقظ بشكل صريح ومعلن، إلاّ تحت تأثير الفكر الأوروبي والثقافة الوافدة إلينا من الغرب، وذلك عبر محاولة قام بها، في أواخر القرن التاسع عشر، مفكرون وأدباء عرب، لبناء مجتمع حديث، يتجاوز البنى الطائفية والعشائرية، ويتصدى لمحاولات الإفناء التركية من جهة والسيطرة الاستعمارية الأجنبية من جهة أخرى.

إلاّ أن الرأسمالية العربية لم تتطور، ذلك التطور الواسع الذي يجعل مقتضيات السوق الواحدة تتحول إلى معول هدم بين الأقطار العربية، كما في أوروبا، بل إنها لعبت دوراً تخريبياً على الصعيد القومي، فهي تخلق التناقض وتؤزمه بين قطرٍ وآخر، وبدت كل رأسمالية قطرية تتطور وبصورة مستقلة، ومعزولة عن الأخرى.

في التطور الغربي، نمت الدولة القومية في مرحلتين أساسيتين: الأولى: مرحلة الانتقال من سلطة القرابة إلى سلطة الإقليم، الثانية: مرحلة الانتقال من سلطة الدولة المدينة إلى الدولة القومية.

ففرنسا مثلاً، كانت مؤلفة من عدة مدن، كل مدينة تشكل دولة. أحد هذه المدن، الدولة المركزية، أخذت تذيب شيئاً فشيئاً تلك الدول المدن، ونشأت الدولة القومية، الدولة الأمة، فظهرت المدينة الحديثة، حيث لم يعد هناك علاقات عشائرية وعائلية وعلاقات أقاليم، بل علاقات جديدة، إنتقل التنظيم القديم خلالها إلى تنظيم أمة بمجموعها. هذا الشكل من التطور لم يحصل في الدول العربية، إنه ضعيف جداً. لقد قام عبد الناصر بمحاولة لخلقها، إلاّ أنها كانت محاولة قاصرة، بدأت الآن تتجلى بشكل رهيب.

قبل الاستعمار، كانت تركيا مثالاً@ للدولة المفصولة فيها السلطة عن الشعب. عندما جاء الاستعمار، وهو أجنبي بالطبع، حاول أن يخلق دولة على شاكلته، رغم وجود السلطة والأهداف

الاستعمارية، فنشأت نواة للدولة الحديثة. بعد هذه الدولة الاستعمارية، التي كانت تتجلى ببعض مزايا الدولة الحديثة المنقولة مع المتروبول زائد مصالح الدولة الاستعمارية، زائد التأثيرات من الداخل، بعد هذه الدولة، جاءت البورجوازية العربية فاحتفظت ببعض بقايا الدولة الكولونيالية مع مزيج من أبوية شرقية، لكن التقهقر استمر، وبلغ أوجه في مرحلة ما بعد عبد الناصر، وتحت شعار أن الإستعمار هو وحدة مصدر البلايا والفساد والتأخر الذي يعانيه مجتمعنا العربي، أعيد الاعتبار للمجتمع العربي التقليدي ما قبل الكولونيالي، وكرست مجدداً قيمه وعاداته، مثلنت (أي رفعت إلى مرتبة مثل أعلى)، تصوراته ومفاهيمه، متجاهلين وجاهلين في آن، أكثر من ألف عام من تاريخنا المملوكي والعثماني التي رزح تحت وطأتها شعبنا، لقد طرح شعار العودة إلى الأصالة، هذا الشعار الذي جاء نقضاً ونفياً للنزعات الرامية إلى تبني وتمثل المناهج والقيم التي صاغت العصر الحديث، فحوّلت عملية التقدم إلى سيرورة نحو الماضي، ودعي الشعب العربي إلى إقحام المستقبل وعيونه شاخصة إلى وراء ...

-3لذا فالقومية العربية الديمقراطية غائبة في فكر البورجوازية العربية، والنخب السياسية الحاكمة. غياب القومية يتجلى في تظاهرتين متداخلتين هما: نقص الاندماج القومي وضمور الوعي القومي.

نقص الاندماج القومي العربي، الذي هو حصيلة للركود العربي، يتجلى أساساً في استمرار أشكال التضامن التقليدية القديمة. ففي المجتمع العربي يعيش الناس، بالأحرى منعزلين في عصبيات أو جماعات ضيقة خاصة: العائلة، العشيرة، الطائفة، القرية والحي (بل ثمة عصبية مدينية وأخرى إقليمية). والواقع أن نظام القرابة العربي، الموغل في القدم والكابح للتقدم، والذي يقيم الروابط بين الناس لا على أساس عقلاني بل غريزي، لا على أساس الرأي بل الدم، يكمن في أساس استمرار أشكال التضامن القديمة. حتى أشكال التضامن الحديثة (مثلاً الأحزاب السياسية المزعومة حديثة) تتموضع فوق / أو تتمفصل في حدود ملحوظة وفي الغالب، مع أشكال التضامن التقليدية بدلاً من أن تعمل على تصفيتها وتقوم على أنقاضها.

هذه الجماعات الضيقة الخاصة، وهي جماعات ما قبل قومية ولا قومية في آن، لا يمكن أن ترقى إلى امتلاك وعي قومي، أي وعي يتعالى على / ويتناقض مع مصالحها الضيقة ويعانق المصلحة القومية للأمة.

والواقع أن العالم العقلي والمجتمعي لهذه الجماعات عالم محدود، والعالم والبشرية ينتهيان عند حدودها، ومن هنا افتقارها إلى الخيال أو الأفق الذي يجعلها قادرة على تصور روابط تلحمها بأناس يقعون خارج حدودها ولا تتعامل معهم تعاملاً مباشراً، أي أنها تفتقد الأفق الذي يرفعها إلى نظرة قومية شمولية، فالوعي القومي، أي الوعي القادر على استيعاب المصلحة القومية بجزئياتها وكليتها، بتفاصيلها وإجمالها، يشكل قفزة نوعية تنقل تلك الجماعات من وعيها الغريزي إلى وعي عقلاني.

إن غياب القومية قد انعكس على مسألة بناء كل من الدولة والديمقراطية، ذلك لأن الأولى، أي القومية تشكل قاعدة أو أساس الأخيرتين، المنبثقتين من المبدأ القومي السامي، مبدأ سيادة الأمة وحقها في امتلاك زمام مصيرها بنفسها. من هنا لم يكن بنيان الدولة في البلدان العربية يمت بصلة جوهرية إلى الدولة القومية العقلانية الحديثة. وما زاد في أهمية مسألة قيام دولة قومية هو الدور الحاسم الذي ينتظر تلك الدولة في قيادة عملية التنمية، بسبب عدم تكون طبقة بورجوازية حقة، من النمط الغربي، قادرة أن تقوم بهذا الدور.

والواضح أن "الدولة" في عموم الوطن العربي، إذا ما قورنت بالدولة العصرية، تقع في مرتبة ما دون الدولة أو في مرحلة ما قبل الدولة، ذلك لأنها:

1- إما دولة فئوية (طغمة، عائلة، عشيرة، طائفة، الخ)، الأمر الذي يفسر، جزئياً، طابعها الإستبدادي، ذلك لأن دولة كهذه لا تستطيع الإستمرار إلاّ باستعمال القوة ضد من هم خارج حدود قاعدتها البشرية، في حين أن الدولة القومية، التي لا بد أن تكون ديمقراطية،

تتواصل مع مجموع الشعب، الأمر الذي يمكنها من تعبئة وإثارة روح التنمية فيه ودفعه في طريق النهضة.

2- إما دولة ثيوقراطية إلى هذا الحد أو ذاك، الأمر الذي يفسر ليس فقط طابعها الاستبدادي بل أيضاً شللها وعطالتها بالمحرمات والمسبقات، وانغلاقها بالنتيجة، على العصر الحديث، في حين أن الدولة القومية دولة علمانية وعقلانية، ومؤهلة، بالتالي، لأن تكون عصرية ومستقبلية ومستوعبة استيعاباً واعياً وشمولياً المصلحة القومية وقادرة على خدمتها بالفعل.

هذه الفئوية التي سلخت الدولة عن الأمة، ثم هذه الثيوقراطية التي حرمتها من الوعي العقلاني، هبطتا بها إلى ما يذكِّر بـ "الدولة" الملوكية، بحيث لم يعد لها من سمات الدولة الحديثة سوى بعض أطر ومظاهر وشكليات، موروثة من "الدولة" الكولونيالية.

يقيناً إن "الدولة" الكولونيالية، التي لم تجد في المدينة الإسلامية (علاقات مجتمعية + ثقافة وحضارة + ايديولوجيا) تقليداً دولوياً، جاءت مفصولة عن الشعب وفي سياق عملية اغتصاب قومي شاملة، إلاّ أنها ليست دولة فئوية ولا ثيوقراطية، ناهيك عن أن الإغتصاب المملوكي أكثر إطباقاً وأشد هولاً وسحقاً. من هنا كان إنبعاث "الدولة" المملوكية أو العثمانية، الذي يشكل جزءاً من ظاهرة انبعاث المجتمع العربي ما قبل الكولونيالي، خطوة إلى الوراء بالنسبة للدولة الكولونيالية.

الدولة المملوكية المحدّثة هي "دولة" منسلخة وتالفة ومفوّتة، فكيف يمكنها أن ترسي إقتصاداً حديثاً وتشغله؟!.

4- في المشرق العربي، وخلال مراحل طويلة من وجودها على الساحة العربية، إزوّرت الأحزاب الماركسية العربية عن الحركة القومية للشعب العربي، وناصبتها العداء حيناً، وأهملتها أحياناً أخرى، وتحدثت عنها كرفع عتب في مناسبات عديدة، ولهذا السبب لم تستطع وعي الظروف

الواقعية للنضال العربي، فعجزت عن الإندماج التام في النضال التاريخي الذي انخرطت فيه الجماهير العربية.

أما الأحزاب القومية العربية التقليدية فقد شوهّت – وما تزال – المضمون الحقيقي للحركة القومية العربية. رغم اندماجها إلى هذا المدى أو ذاك، وخلال عدة مراحل – في خط السير الأساسي للثورة العربية. هذا الخط الذي كان يتمثل وما يزال في تيار القومية العربية.

فلقد لعبت تلك الأحزاب دوراً هاماً في نضالنا القومي، وكانت مفاهيمها، رغم تخلفها ورغم مثاليتها ومجافاتها للعلم والمعرفة وتطور التاريخ ، سبباً في تعميق جذور النضال القومي، عندما كان غضاً في مراحله الأولية الطفولية. إلاّ أن التطور الذي أصاب حركات التغيير العربية. أخذ يكشف، يوماً فآخر، الجوانب السلبية في النظرة التقليدية إلى القضية القومية، هذه النظرة بدأت تعرقل نمو حركة الجماهير وترصيف عقلها العلمي والعلماني وتعميق وعيها القومي الديمقراطي والثوري.

فلقد أعطت الحركة القومية التقليدية الوجود التاريخي للأمة صفات فوق التاريخ، فهي بنظرهم من صنع الطبيعة وليست من صنع التاريخ، لقد نفت فكرة البداية والنهاية وفكرة النمو والتحول، فالأمة العربية بنظرهم أزلية، بدأت مع آدم ومع بداية التاريخ، أي مع الحضارة الحميرية في اليمن والحضارات السامية في منطقة الشرق الأدنى، والوجود الأزلي للأمة في الماضي لا بد أن ينسحب إلى المستقبل ثباتاً وخلوداً. إن نفي النمو والتجاوز والتحول، يجعل التطور الذي يصيب الأمة مجرد تحولات كمية، وهكذا تصبح التحولات التاريخية مجرد تهويمات دائرية من صفحات الزمن، ويصبح سير التاريخ ضرباً من الانسياب الرشيق على سطح الخصائص الأصلية الغائبة الخالدة للأمة. الأمة العربية اليوم تتماثل مع القبائل العربية في العصر الجاهلي، والحقيقة القومية واحدة من حيث الجوهر، ولكنها تتجلى في صور متعددة، قد تتباين من حيث الإطار والشكل. وتتجلى حقيقة الأمة في نهضات تاريخية متعاقبة: موت وبعث، مرض وصحة، نهضة وجمود،

والتاريخ بنظرهم حبل ممدود على نحو دائري، والتطور مجرد استطالات لذلك التاريخ، فإذا كنا في عصر نهضة كانت الاستطالة عفوية، وإذا كنا في عصر نكسة فالاستطالة طفيلية.

إذن... فالتاريخ برأيهم تكرار وليس تجاوزاً. والعصر الذهبي للأمة العربية تجلى في الجاهلية كما تجلى في الإسلام، والرسالة واحدة وخالدة، وإنما تتجلى في صورة أو أخرى، في إطار أو آخر. فالتاريخ بنظرهم حركة هزازة إلى أمام ووراء، وليست سيراً صاعداً يتجاوز نفسه، والنهضة هي معاودة الاتصال بروح الأجداد، والجمود انقطاع عن هذا الاتصال.

تلك هي الخطوط العامة لنظرة الأحزاب القومية التقليدية حول قضية الأمة القومية فما هي المعطيات الإيديولوجية والسياسية لتلك النظرة.

إن الأحزاب القومية التقليدية. إذ نفت تاريخية الأمة، حوَّلت الواقعة القومية إلى ما يشبه "تابو" واعتبرت التطور التاريخي نوسة محورها هذا التابو، فالأمة ككل أصبحت بداية المطاف وخاتمته. هذه المقولة المثالية المقطوعة عن الحقيقة التاريخية، دفعت بالقوى القومية التقليدية إلى "مذهبه" الواقعة القومية، ورفعتها إلى ايديولوجية كاملة. حقاً إن واقعة موضوعية لا بد أن تجد تجسيدها على الصعيد الأيديولوجي، ولكن تحويل هذه الإيديولوجية إلى مصاف الكلي المطلق، أو إلى مبعث النظريات، لا بد أن يحول القومية إلى نرجسية قومية من جهة، كما أنه يحجب الرؤية العلمية الشاملة للواقع الموضوعي من جهة أخرى، إن رفع الواقعة القومية إلى إيديولوجيا كاملة، يعني أن هناك إيديولوجيا عربية وثانية ألمانية وثالثة روسية... وهكذا. وهذه اسطورة فجة.

التطور التاريخي عملية صراع جدلي بين ما يولد وما يموت، بين الجديد والقديم، هذا الخيط الذي ينظم مجرى التطور يجعل كل ايديولوجيا مجرد تعبير واعٍ أو غير واعٍ، لهذا فليس من ايديولوجيا قومية، بل هناك ايديولوجيا تعبر عن الجديد الذي يولد وينمو وعن القديم الذي يتفسخ ويموت. وبتعبير آخر، هناك ايديولوجيا محافظة وأخرى تقدمية... أيديولوجيا إصلاحية وأخرى ثورية.

وفي محاولة لإعطاء جذور تكاد تكون دينية للقضية القومية، حيث ربطت القومية بالدين واعتبر الأخير خاصة أساسية من خصائص القومية العربية. في هذه المحاولة، ألحّ قسم من التقليديين، والتقليديين الجدد، على "الإيمان" باعتباره جذراً للحياة وملخصاً لها، وغرق في أساطير قبلية غيبية تحتقر العلم والتجربة الإنسانية أو تعتبرها مجرد امتداد للإيمان وتبرير له. وإذا كان للإيمان (العقيدة) دوراً هاماً في العمل السياسي، حيث يمنح المناضل الصبر والصلابة والتفاؤل، إلاّ أنه يجب توضيح العلاقة بين الإيمان والمعرفة، بين العقيدة والحقيقة.

لا بدّ أن تستند أصول العقيدة – أي عقيدة، إلى ضرب من المعرفة، مهما تكن بدائية أو أولية، ذاتية أو تغريبية، فالعقيدة – إذن – ليست لاحقة للمعرفة في حال من الأحوال. فالإيمان الإنساني ليس ضرباً من التوتر أو التشنج النفسي. لذا فإن قلب المسألة ليس إلاّ محاولة لجعل المعرفة مجرد ملحق وتابع ومبرر للإيمان.

عندما يبنى الإيمان على مسلمات قبلية مطلقة... عندما يفقد الإيمان تفاعله الدائم مع الحقيقة العيانية، لا بد أن يتحول إلى جثة محنطة... لأنه يفقد دمه الحار ونسغه الحي. وعندئذٍ يتحول إلى هوس وتشنجات وحماسة صبيانية وتهويش لفظي، لا بد أن ينتهي إلى اليأس أو إلى الفاشية. وعندما يفقد الإيمان (العقيدة) دعائمه في الواقع المحسوس ويتحول إلى مثالية مجردة، يصبح سداً أمام رؤية الواقع الملموس دوماً، وحائلاً دون التفاعل معه بالتالي.

إن الفكر السياسي – باعتباره فكراً عملياً من حيث الأساس – لا يمكن أن ينضج إلاّ بانفتاح حر على الواقع العياني، وإلاّ عبر تحليل دائم له، وتفاعل إيجابي مثمر معه.

إنّ وضع العربة أمام الحصان (الإيمان قبل المعرفة) يجعل الفكر السياسي فكراً تبريرياً تأملياً ذاتياً، تدور فيه فكرات مسبقة وقبلية، يصبح التسليم بها ضرباً من التدين التقليدي، وهنا تتحول المعرفة إلى مجرد صيغ جامدة، وجمل إنشائية لا يربطها منطق شامل متماسك، وتصبح مجرد تسبيحات خاوية من أي فكر ومضمون، محدد ومباشر على الصعيد الطبقي الاجتماعي. وهكذا

تمتنع عن الفكر السياسي الإيماني الرؤية العميقة الشاملة المتطورة للواقع العميق والشامل والمتطور.

يبقى أن الفكر القومي التقليدوي لا يرى مسألة التناثر العربي وما تشكله من عقبة أمام المشروع الوحدوي القومي، ويعتبرون أنها مسألة طارئة، مصطنعة وسطحية وأنها ستزول عندما تستيقظ الأمة وتعود إليها روحها "الأصيلة" المهوّمة على فوق التاريخ.

لقد عجز الفكر القومي التقليدي عن إدراك جذور هذا التناثر والتي يمتد بعضها، كالطائفية مثلاً، في بطون التاريخ، إلى ما قبل الفتح الإسلامي بالنسبة للأقليات غير الإسلامية، وإلى الانشقاق الإسلامي بالنسبة للأقليات الدينية الإسلامية. والتي يمتد بعضها الآخر كالأقليمية مثلاً، ليغوص في الجغرافيا العربية (أنماط الأرض العربية والهوى الرملية المتدافقة بالتأخر الاقتصادي العربي). كما أنها تتناسخ وتلد نفسها في ما يشبه عملية "تكرار انتاج" البنى والإيديولوجيات التقليدية والقديمة في لبوس البنى والإيديولودجيات "الحديثة".

هذا الإنحدار إلى ما قبل القومية هنا. أو التخثر في ما قبل القومية هناك، هل كان ممكناً لو أن واقع التناثر القومي العربي كان طارئاً، مصطنعاً وسطحياً؟! أليس المذهل والمخجل والمأساوي أن يذكِّر الجدل والعراك السياسيين، فضلاً عن الإقتتال، كما في لبنان اليوم، مثلاً، مع تغيير في المصطلحات والمفردات، التي وفدت إلينا من الغرب، بالجدال والعراك، والاقتتال التي حدثت في ستينات القرن التاسع عشر؟!. أي مسافة قطعنا، إذن، على صعيد الفكر والإيديولوجيا، منذ قرن وثلاثة أرباع القرن؟!.

ثم كيف تستيقظ "الروح القومية الأصيله" في حال استمرار واقع التناثر القومي.؟ أليس الأصح أن يؤدي إلى تراجع وضمور، ثم تصفية واقع التناثر إلى استيقاظ تلك الروح، وليس العكس؟ وبالتالي أليس استيقاظ الأمة وتفتح الوعي القومي سيرورة وليس كشفاً مباغتاً؟!".

5- إن الثورة القومية الديمقراطية تشكل البدوة اللازمة في سيرورة عقلنة المجتمع، أو لنقل في سيرورة انتقال شعب ما من مجتمع ذي نمط تقليدي إلى آخر ذي نمط عصري، وبدون هذه الثورة يستحيل هذا الانتقال، إذ أنها هي التي تجدد الميزات المجتمعية والذهنبية والإيديولوجية والسياسية في عمارة المجتمع، مسهلة ومتمفصلة وممهدة لنمو الإنتاج وبناء بنيان اقتصادي جديد للمجتمع.

وإذا كانت الديمقراطية هي تعبير عن المدى الذي بلغته حركة تطور شعب ما، من حيث نموها ونضجها وتنظيمها، فإنه لم يكتب لهذه الديمقراطية التطور والاستمرار والثبات ما لم تكن ثمرة نضال قومي وشعبي واسع ومنظم، يشكل جزءاً من النضال ضد الأسس والأطر الإيديولوجية التقليدوية والتقليدوية الجديدة، نضال فكري وسياسي يشكل جزءاً من النضال ضد المرتكزات الموروثة والإيديولوجية والطبقية.

لذا فإن السيرورة التاريخية لحركة القومية العربية الديمقراطية تتمثل في ما يلي:

1- التوحيد القومي وتسييس الشعب: أي إمتزاج الدولة بالمجتمع وانبثاق ديموقراطية سياسية حقة، حيث للجسم السكاني الحق والوزن في اتخاذ القرارات السياسية، فالواقع أنه يقع في رأس مهام قوى التغير، التي تعلن انتسابها للشعب، النضال مع الشعب وفي سبيله، لتسييسه، أي لتنمية وعيه، لتنظيم صفوفه وتعزيز قدراته، للإنتقال بالإرادة القومية للأمة من الإذعان والعزوف (إذا كانا قائمين) إلى الرفض، وبالتالي إلى الفرض، حيث الشعب هو السيد، وبالتالي الإتجاه نحو تحقيق سيادة الأمة (إنّ مفهوم سيادة الأمة ينطوي، بداهة، على تحرر الأمة من كل نفوذ أجنبي وخارجي، فضلاً عن سيادتها على مقدراتها في الداخل). ومن الواضح أن الرأي العام العربي حالياً، ليس فقط لا يؤخذ بعين الإعتبار في الدول العربية، "التقدمية" منها والرجعية فحسب، بل يسحق تحت أقدام الديكتاتورية الإستبدادية المطلقة ويعيش في أشكال شاملة من الرعب والخوف

والقلق، لذا فإن تسييس الشعب هو في رأس مهام الثورة القومية الديموقراطية، والعامل الأساسي في ردم الهوة القائمة بين السلطة والشعب.

2- التوحيد الثقافي: توحيد الأنتلجنتيسيا العربية في البدء، ثم توحيد الانتلجنتيسيا مع باقي الشعب. ولا شك أن الممالك الثقافية، الطائفية منها والعنصرية، تضيف إلى عناصر التفسخ وعدم الاندماج، القوميين اللذين يسودان كافة العالم العربي.

3- الإندماج القومي: أي تصفية سائر التشكيلات الإجتماعية ما قبل القومية كالطائفية، المذهبية، الإقليمية، العشائرية... هذا فضلاً عن تصفية التجزئة، كما وأن الإندماج القومي يتطلب حل مشكلة الأقليات واستلابها واغترابها القوميين.

4- تحديث الفكر الديني: إن عملية عقلنة وتحديث الفكر الديني، أي عقلنة الفكر الديني الإسلامي والفكر الديني المسيحي، تمر عبر عملية عقلنة الفكر العربي بشكل عام. إن محاولات عقلنة وتحديث الفكر الإسلامي كانت ناقصة عبر التاريخ العربي. المحاولة التي تمت عن طريق المعتزلة كانت محاولة جيدة إلاّ أنها فشلت نظراً لأن دور العوامل الأخرى المحيطة كان أكثر وزناً وتأثيراً... هناك فرق بين الإيديولوجيا الدينية والفكر الديني. الأولى هي السائدة بين الناس بشكل عام، والثاني أي الدين المنتشر بين المثقفين المتدينين. نطرح مسألة تحديث الفكر الديني والإيديولوجية الدينية لأنها تطال القسم الكبير من الأمة حيث تهيمن عليه هذه الأيديولوجيا. لذا يقع على قوى التغيير أن تجد باباً، منفذاً، أو بالأحرى وسيلة لتطوير هؤلاء الناس. فلا ينبغي أن نستهين بعمق الفكر الديني. ففي روسيا اليوم بعد نصف قرن من الإلحاد، تظهر الآن موجة دينية، وإن لم تكن كالتي نشهدها هنا، فهي موجة دينية معقلنة، فالدين في بلدٍ ما، في دولة معينة يأتي رداً على المآسي التي يعاني منها المجتمع. لقد كانت النظرة الماركسية للدين نظرة مبسطة، لقد كان نقدها للدين صحيحاً، إلاّ أن نظرتها بإمكانية ضربه نهائياً نظرية سطحية مبسطة، شأنها في كل شأن نظرتها للفكر القومي.

إن الإيديولوجيا الإسلامية السلفية السائدة إيديولوجيا إمتناعية، طاردة ومضادة للقيم الحديثة، لذا المطلوب إنشاء إيديولوجيا إسلامية مستقبلية.

5- علمنة السياسة والتعليم، وجعل التعليم أكثر مطابقة لحاجات المجتمع، وتعميمه وإلزاميته.

6- تحرير المرأة وتحويلها من حرمة إلى إنسانة، تؤدي دورها المطلوب في كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

7- الإصلاح الزراعي والتصنيع، وتحويل المجتمع والدولة من مجتمع ودولة ريعية إلى مجدتمع ودولة منتجة.

8- صحافة حرة وأحزاب حرة، غير مقيدة وغير خاضعة لأي سلطة محلية أو خارجية.

9- حكم وسيادة القانون والتأكيد على سيادة الإنسان ومفاهيمه وقيمه الحديثة: الوقت، الشغل، القانون، المسؤولية... الخ.

10- تحديث اللغة العربية، بحاجة إلى نقلة جدارية، الرؤية الحديثة في اللغة هي أنها تعبير عن شيء، وأنها أداة إعلان، وتطور اللغة متعلق أيضاً بتطوير الإيديولوجيا العربية.

وأخيراً، وعلى ضوء هذا التحليل لا يسعني إلاّ القول، "أن الدولة القومية العربية ليست مجرد تجميع لأجزاء الوطن العربي، بل هي القاعدة المتينة الراسخة للأمة، ومنطلق تطورها وأساس تحررها. إن الأمة التي حققت وجودها القومي ليست مجرد أمة بنت كيانها السياسي، بل هي أمة جديدة تماماً من حيث تطورها التاريخي الحضاري، صفّت ما هو متأخر ووسطوي وقبلي ومفوّت في حياتها، وبهذا المعنى تتضح الأبعاد الثورية للقضية القومية: فهي حركة علمانية وديموقراطية بالأساس، وهي حركة معادية للتسلط الأجنبي وللإقليمية ولسائر البنى المتخلفة والمتأخرة".